إعجاز القرآن

أ/ الشريف قصار

إن لغة العرب لمن أغنى اللغات كلها وأعرقها قدما، إنها لغة قوم أمّيين لم تلبث أن أصبحت لغة البيان والفصاحة قبل الإسلام، وهو القرآن العظيم يترل بها تشريفا لها وهو كتاب الله المعجز وكتاب العربية المبين "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تتريل من حكيم حميد" فيه آيات بيّنات ودلائل واضحات وأخبار صادقة ومواعظ رائقة وشرائع راقية وآداب عالية بعبارات رشيقة تأخذ بالألباب وتهز القلوب وتحرك المشاعر وأساليب ليس لأحد من البشر بلغ ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها بل أن يفكّر في محاكاتها كلها. ذلك أنه لا هو شعر ولا هو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة. إنّما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية وجلال وروعة. فقد استوفى حقا عناصر الإعجاز. فالقرآن قد سما في علوّه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله سواء أتعلق الأمر بالمبنى أم بالمعنى.

إنّ المبنى أو الشكل لخاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية وتذوقوا بلاغتها. لقد أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم كما أعجزهم من جهة الكلام الذي هو سيد أمرهم. ولاعجب إذا لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، فإذا اهتدى به من كان ذا عقل حصين وذوق لطيف سليم فإن أهل العناد والمكابرة ما لبثوا أن صدّوا عنه وما له إلا أن يتحداهم أن يأتوا بمثله لكنّهم بُهروا ثم تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله فنكصوا ثم بسورة من مثله بل بأقصر سورة فخرسوا فحق عليهم إعجازه، وما عجزهم بعد التحدي إلا دليل الإعجاز وعظمة البيان وجلال الأسلوب : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

على أن هناك من حاول أن يتنبأ أو يتعاطى معارضة القرآن صناعة. منهم مسيلمة بن حبيب الكذّاب تنبأ باليمامة في بني حنيفة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد زعم أن له قرآنا نزل عليه من السماء يأتيه به ملك يسمى رحمن! ومنهم عبهلة بن كعب الذي يقال له الأسود العنسى يلقّب ذا الخمار لأنه كان يقول يأتيني ذو خمار وقد تنبأ هو الآخر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج باليمن ؛ ومنهم طليحة

1. البقرة، 23-24.

2.الاسراء، 88.

بن خويلد الأسدي قدم على النبي في وفد أسد بن خزيمة سنة تسع ؛ فأسلموا وقد تنبأ هو كذلك ومنهم النضر بن الحارث إنه ومن يأتي بعده من الذين زعموا أنهم يعارضون القرآن ؛ ثم يأتي الشاعر أبو الطيّب المتنبي المتوفى سنة 354 هـ. وقد ادّعى النبوة فتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم.

ومما يلاحظ أيضا أن القرآن أثار منذ اللحظة الأولى لنزوله حركة فكرية ودعا العرب إلى الالتفات إليه كما جاء به من جديد في أساليب الشعر والبيان فما لبث أن ظهرت دراسات للقرآن وكتب قيمة منها دراسة الجاحظ (توفي سنة 255 هـ) لبيان القرآن وكتاب نظم القرآن ودراسات الباقلاني (توفي سنة 403 هـ) للإعجاز القرآن ؛ ونقد الشعر لقدامى بن جعفر وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري وكتابا عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وقد توفى عام 471 هـ.

لقد اهتم هؤلاء العلماء وغيرهم في مؤلفاتهم بالموضوع علّهم يكشفون على وجوه البلاغة القرآنية لكنهم لم يوفقوا كل التوفيق ذلك أنهم " قد شغلوا أنفسهم بمسائل كثيرة وهي أبعد ما تكون عن الجوّ الغنّيّ المحض. فلم يتح لهم شغفهم بالتّبويب والتّقسيم فرصة لإدارك الخصائص العامة التي صدر عنها كتاب الله في تصويره وتعبيره فيهز النفوس ويحرك المشاعر ويفيض الدموع"[1]. وهذا سيّد قطب يؤكد ذلك إذ يقول "ولكن بدلا من أن يبحث (التفسير) عن الجمال الغني في القرآن وتناسقه مع الجمال

1. مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح بيروت ط. 5 ص. 316.

الموضوعي البالغ حدّ الكمال، اخذ يغرق في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية وبذلك ضاعت الفرحة التي كانت مهيأة للمفسّرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن وربطها بالكمال الموضوعي الذي يتجلى في القرآن"[1].

ومع هذا لا يمكننا إلا أن نشيد بما انتهى إليه القدماء من أن العنصر الأسلوبي عنصر أساسي في الإعجاز كما أبرزه السيوطي مثلا في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" وإذا كانوا قد اهتموا بالجانب الموضوعي وجماله فإن بعض الباحثين المحدثين عنوا هم بجانب الجمال الفني للأسلوب. هذا سيد قطب يرى أن التّصوير هو الأداة المفضلة للتعبير في القرآن يقول : "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبّر بالصورة المحسة المتخليّة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ؛ ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أوالحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل..[2] ولا غرابة إذا عقد فصلا للتخييل الحسّي والتجسيم وفصلا للتناسق الفنّي وفصلا للقصة في القرآن موردا أمثلة كثيرة عن ذلك. وهذا مصطفى صادق

1. التصوير الفني في القرآن للسيد قطب (1386 هـ 1966م) ص. 26.
2. نفس المصدر(ص. 34).

الرافعي يُعنى عناية خاصة بالنّظم الموسيقي في القرآن. فيرى" أنه ممّا لا يتعلق به أحد ولا يتّفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعيّة في الهمس والجهر والشدّة والرّخاوة والتفخيم والترقيق والتّفشي والتّكرير"[1].

وهكذا فإن الإعجاز بمطلق مظاهره الخاص بالعرب وهم أرباب اللغة وآدابها، لكنه ليس وقفا عليهم في شيء إذ هناك من الإعجاز ما يدركه الناس كلّهم وهو يتعلق بالمعنى خاصة ؛ من ذلك الإخبار الغيبي. فقد أخبر الله عن اليهود وعن ما قضى بشأنهم إلى قيام الساعة : ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُم الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْب أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لاَ يُحبُّ الْمُفْسدينَ**﴾[2]. وقد أخبر عن أمور غيبيّة وقد وقعت كما أخبر ﴿**أَلَمّ. غُلبَت الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ منْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلبُونَ. في بِضْعِ سنينَ لله الأَمْرُ من قَبْلُ وَمنْ بَعْدُ**﴾[3]. ومن الإخبار الغيبي قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُؤْيَا بالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمنينَ مُحَلّقينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَتَخَافُونَ**﴾[4] ومن ذلك الإخبار عن مصير أشخاص بأعيانهم وحكم الله المبرم في شانهم مثل أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ. وَتَبَّ**

1. تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي القاهرة 3 أجزاء (1359هـ – 1940م) الجزء الثاني (ص. 225).
2. المائدة، 64.
3. الروم، 1–4.
4. الفتح، 27.

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[1] والإخبار عن الوليد بن المغير المخزومي **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.**[2]

ومن مظاهر الإعجاز في القرآن الإخبار عن كثير من الأحداث البعيدة المجهولة لا يعرف منها إلا ما كان مبثوثا في الكتب السماوية. فالرسول صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يحسن القراءة ولا الكتابة و لم يثبت أنه تعلم مما عند معاصريه من علماء هذه الكتب وإذا كان الأمر كذلك فإن ما انتهى إليه من أخبار الماضي السّحيق إنما تم بفضل الوحي ويكون ذلك وجها آخر من وجوه إعجاز القرآن وبجانب ذلك الإعجاز بالتّشريع. فما تضمنه القرآن من تشريع دقيق متكامل يتعلق بمختلف أمور الحياة الخاصة والعامة دليل على هذا الإعجاز. ناهيك أنه أقيم ويقام المرة بعد المرّة من المؤتمرات الفقهية في كثير من البلدان ما يؤكد هذا الوجه الآخر من الإعجاز وهناك الإخبار عن نواميس كونية ستظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم.

ومن عناصر إعجاز القرآن التنسيق الدّقيق في الرّوابط بين السّور وبين الجمل ذاتها وبين مضمونها ونهايتها والفواصل. فنتأمل على سبيل المثال

---

1. المسد، 1-5.
2. المدثر، 11-26.

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾[1]. فالولي يتولى عباده بالعطف والرّعاية يترل عليهم الغيث ؛ والحميد ينشر عليهم رحمته فهناك علاقة وثيقة بين الولاية ونزول الغيث كما أن هناك علاقة بين الحمد ونشر الرّحمة. إن هذا المثال لقطرة ماء في بحر. فكل كلمة في القرآن مقصودة وكل لفظة مهدوفة بل لكل حرف دلالة خاصة بحيث لو استبدلت كلمة بأخرى أو غيرت عبارة أو حتى حرف في آية لما أدّت المعنى المطلوب. فاختيار القرآن للألفاظ اختيار دقيق حكيم وهكذا فعلى القلم أن يقف.

إن إعجاز القرآن لفي غنى عن الدليل ومتى تحتاج الشمس في وجودها إلى برهان ؟ فسرّ بلاغته وإعجازه يستعصي على البيان ويعلو على العقول لأنه آية الله ؛ ولاعجب إذا كانت المعجزة الخالدة التي اختص بها رسوله الأعظم محمدا صلى الله عليه وسلم. إن أسلوب القرآن للسّحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾[2] لقد صدق الله حين قال لنبيه : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

---

1. الشورى، 28.
2. الكهف، 29.
3. الاسراء، 88.